

ولكن معاصري النبي أنفسهم لم يأخذوا الإسراء أخذ المسلمات، بل ناقشوه، فألحد به أبو جهل ومعسكره، وشك به نفر ممن أسلموا فرفض تصديقه قبل امتحان النبي، إذ سألوه أن يصف بيت المقدس - ولم يكن رآه من قبل - فوصفه بما يعرف مشاهدوه من صفاته. وغلا بعض سامعي الحديث، فأرجف المشركون وارتد جملة ممن كانوا أسلموا كما يروي الكشاف.

وقد أشفقت أم هانئ من وقع الخبر على قومه حين حدثها به غب عودته، وتشبثت به تمنعه من الخروج، وهو يهم به ليحدث القوم بما رأى وسمع في بيت المقدس من الأرض، وفي (البيت المعمور) و (سدره المنتهى) من السماء، ولكنه خرج على رغبها فواجه إنكار المنكري، وجابه إرجاف المرجفين، ثابتاً لامتحاناتهم المختلفة، ولما لم يقنعهم وصفة البيت كما عرفه مشاهدوه منهم، سألوه أن يخبرهم عن قافلة تجارتهم، قال ف ((الكشاف)): فأخبرهم بعدد جمالهم وأحوالها، وقال: ((تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يعدمها جمل أورك)).

قال الزمخشري: ((فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو (الثنية)، فقال قائل منهم: هذه - وإ - الشمس قد أشرقت، فقال آخر: وهذه العير قد أقبلت، يقدمها جمل أورك كما قال محمد، ثم لم يؤمنوا وقالوا ما هذا إال سحر مبين)).

ونحن لا ندري مبلغ هذا القصص من الصحة. ولا تمنعنا القواعد والأصول الإسلامية من الشك به، فالثابت من حديث الإسراء إنما هو ما ذكره القرآن، وهو القدر الذي يلزمنا الإيمان والعلم بالأخذ به، أما ما يطيب للأخباريين والقصاص تخيله - وقد يتخيلونه لأسباب وجيهة في أيامهم - فلا يلزمنا، كما لم يلزم عقلاء تلك الفترة وعلماءهم، فقد روت عائشة أن النبي إنما عرج بروحه، ورأى معاوية رأيها، وعن الحسن البصري أن الإسراء كان مناماً لا يقظة.

وليس يصير الحق في المعجزة الحق أن يكون الإسراء عروجاً روحياً، ولا ينقض عليها هذا الرأي من أمرها شيئاً، ففوة المعجزة لا تستمد من شكل الحادث، بل من غايته ومغزاه، والمغزي من حديث الإسراء هو اتصال النبي بالروح الكلي.